

منزلة الإحسان

د. عماد يونس – الأردن

مقدِّمة

إنَّ منازلَ الدِّين ثلاثٌ؛ أوَّلها الإسلام ويتعلَّق ابتداءً بالأعمال الظَّاهرة من صيامٍ وصلاةٍ وزكاةٍ وحجٍّ ونحوها، أمَّا المنزلة الثَّانية فهي أضيق من الأولى وتسمَّى منزلة الإيمان؛ فليس كلُّ مسلمٍ مؤمنًا، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات: ١٤]، فقد يكون ظاهر الإنسان مسلمًا لكنَّه ليس مؤمنًا، بل قد يكون منافقًا -والعياذ بالله-، والمنزلة الأضيق ممَّا سبق هي منزلة الإحسان أو المُراقبة، فما منزلة الإحسانِ؟ وما مظاهر ضعفها في النَّفسِ؟ وما معزِّزاتها؟

تعريف الإحسان

الإحسان هو أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ؛ ودلالة ذلك حديثُ جبريل الذي ورد في الصَّحيحين، عن عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنه- قال: «**بينما نحنُ جلوسٌ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ في أُناسٍ إذ جاءَهُ رجلٌ ليسَ عليهِ عَناءُ سفرٍ ... قالَ: فأخْبِرْنِي عَنِ الإحْسانِ، قالَ: «أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ»**»، وهو تعريف العلماء الذين لم يزيدوا على كلام رسول الله ﷺ حرفًا، ويعرَّف الإحسانُ كذلك بأنَّه المراقبة؛ وهو دوامُ علمِ الإنسانِ ويقينه باطِّلاع الله ﷻ عليه في ظاهره وباطنه وسرِّه وعلنه، ويكونُ ذلك للرجل في مراقبة الله في سره وعلانيته، وللمرأة في ظاهرها بالتزامها بالحجاب، وفي باطنها بمراقبة قلبها وشغافه وسويدائه، في السرِّ والعلن -إذا رآها النَّاس أو لم يروها-؛ فتلك منزلة الإحسان

والمراقبة التي من حقَّقها حقَّق أعظم مراتب الدِّين.

ومَن تأمل الحديث الوارد في صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فِي خَلَاءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسْجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا، قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما صَنَعَتْ يَمِينُهُ**»؛ لعلَّه يجد أنَّ القاسم المشترك بين المذكورين في هذا الحديث؛ هو تحقيقُ منزلة الإحسان!

إنَّ الـمُراقبة هي منزلة الإحسان، وهي كما عرَّفها الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»؛ ومعنى: «**كَأَنَّكَ تَرَاهُ**» أيْ: أن يعبُد العبدُ ربَّه ﷻ كأنَّه يراه بقلبه، ويعلم علم اليقين أنَّ الله يراه، يراه جلَّ في علاه وهو مستوٍ على عرشه بائنٌ عن خلقه ليس كمثله شيءٌ وهو السَّميع البصير، إثباتٌ بلا تمثيل وتنزيهٌ بلا تعطيل جلَّ الله في علاه وتقدَّس في عالي سماه، فمن حقَّق منزلة الإحسان فقد حقَّق أعلى مراتب الدِّين، ولعلَّ من يحقِّقها قليلٌ ولكن من يفعلُ ذلك يحبُّه الله تعالى؛ فالله ﷻ يحبُّ المحسنين، وقد ذكرهم في مواضع كثيرةٍ في القرآن الكريم.

مظاهر ضعف المراقبة وبلوغ منزلة الإحسان

يعرفُ العبد أعراض ضعف الـمُراقبة والإحسان عنده كما يعرف أعراض مرض القلب -نسأل الله السَّلامة- من خلال:

١- الرِّياء: وذلك بِبَحث العبد عن المدح والثَّناء والتفات قصدِه ومطلوبِه عن الله تعالى، وتتشاطرُ منزلتا الإخلاص والإحسان في كونِ الرِّياء دليلًا على ضعفِ المراقبة وعدم بلوغ منزلة الإحسان؛ التي تتمثَّل في كونها علمًا يقينيًا باطِّلاع الله تعالى على الباطن فضلًا عن الظَّاهر والعمل، فمن يرائي فقد ضعُف علمُه والتفت قلبُه إلى غيرِ الله تعالى، وتبعًا لذلك لم يبلغ يقينًا منزلة الإحسان.

٢- أن تقولَ ما لا تعمل: وهذا من أقبح مظاهر ضعف المراقبة؛ أن يتكلَّمَ الإنسانُ فلا يقولُ إلَّا خيرًا وأن يأمُر النَّاس بفعل الخير، ولكنَّه لا يفعلهُ ولا ينتهي عن فعل ما ينهى غيره عن فعله، فقد يرتقي الإنسان منبرًا أو يرتدي زيًا دعويًا، وقد ترتدي المرأة زيَّ الـمُصلحةِ الـمُرشدة، ولكنَّهما لا يعملان بما يدعوان النَّاس للقيام به، فكما أنَّ تركَ العملِ بالعلمِ قبيحٌ في نفسه إلَّا أنَّه أمارةٌ على ضعف المراقبة، لأنَّ الذي يتكلَّم بالخير ولا يعملُ به لو راقبَ قلبَهُ وأنَّ ربَّه مطَّلعٌ عليه ما التفت قلبُه عنه ولظهَرَ عِلمُه عليه.

لذلك كل من يأمرُ بناتِـه بالطُّهر والعَفاف، ويأمرُ أولادَه بالخير والتُّقى والصَّلاح، ولا يفعلُ ما يأمرهم به أن يدرك أنَّه بذلك ليس من المحسنين -والله المستعان-.

٣- هتكُ محارم الله تعالى بالسرِّ: وهي الذُّنوب التي تُرتكَب في الخلوات، كمن إذا خلا بجوَّاله شاهد أو سمع ما حرَّم الله تعالى مع أنَّ ظاهره لا يوحي بذلك، قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣].

والمؤمن لا ينبغي أن يستسلِم لوساوسِ الشَّيطانِ إن أخبرَه أنَّ ما يقوم به من ذنوبٍ في الخلوات أمرٌ عادي سببُه أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، صحيحٌ أنَّ هذا من عقيدةِ أهلِ السنَّة والجماعة، لكنَّ لا يعني ذلك أن نكونَ هتَّاكين للأستار بالأسحار، فهو وقتُ الإحسانِ، ولا ينبغي لمسلمٍ ولا لـمسلمةٍ أن يكون فيه من العُصاة، وكفى بذنوبِ الخلوات قُبحًا أنَّها تتجاوزُ كونها معصيةً لتصيرَ قلَّة تعظيمٍ وضعف مراقبةٍ لله تعالى، وإنَّ الذي اعتاد ذنوبَ الخلوات غادر منزلة المحسنين.

علاج ضعف المراقبة وغياب الإحسان:

١- تذكُّر أوَّل من تُسعَّر بهم النَّار: نقل لنا ابن القيِّم نصيحة أبي حفص النيسابوري لتلميذه أبي عثمان: "**إذا جلستَ للنَّاس فكن واعظًا لقلبك ونفسك ولا يغرنَّك اجتماعُهم عليك فإنَّهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك**"[١]، تُعالج هذه الجملة خلل مراقبة الله تعالى في باب النيَّات، فالله تعالى يعلمُ ما تخفي الصُّدور، ويعلمُ هل تريد القلوب وجهه ﷻ أم لا؟!

٢- إن كان العبد يقول ما لا يفعل: فليعالج قلبه بالكتاب والسنَّة وأقوال العلماء، وقد قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، **وقوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

١-مدارج السالكين، منزلة المراقبة.

[الصَّف: ٢-٣]، وفي الحديث عن أسامة بن زيد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَومَ القِيَامَةِ فيُلقَى في النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ في النَّارِ، فَيَدُورُ كما يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عليه فيَقولونَ: أيْ فُلَانُ، ما شَأْنُكَ؟ أَلَيسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بالمَعروفِ وتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! قالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بالمَعروفِ ولَا آتِيهِ، وأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ**» [أخرجه البخاري]، وهذا المشهد العظيم المُخيف سببه عدم مراقبة الله تعالى.

٣- تذكُّر عظم عقوبة المُذنب في الخلوات: قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، وهذا من أنجع العلاجات التي تقوِّي المراقبة، وتذكُّر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**لأعلمنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يومَ القيامةِ بحسناتٍ أمثالِ جبالِ تهامةَ بيضًا فيجعلُها اللهُ عزَّ وجلَّ هباءً منثورًا**» قال ثوبانُ: يا رسولَ اللهِ صِفْهم لنا جَلِّهم لنا أن لا نكونَ منهم ونحنُ لا نعلمُ، قال: «**أما إنَّهم إخوانُكم ومن جِلدتِكم ويأخذون من اللَّيلِ كما تأخذون ولكنَّهم أقوامٌ إذا خَلَوا بمحارمِ اللهِ انتهكُوها**» [أخرجه ابن ماجه]، وهو حديث متعلِّقٌ بالمُنافقين، وقد استشكله عددٌ من العلماء وقالوا إنَّه يخصُّ من لبس زيَّ الصَّالحين في الملأ وانتهك المحارم سرًّا -والعياذ بالله-.

ولا شك أنَّ ثمة فرقًا بين من يُذنِبُ فينكسرُ ويذلُّ لله تعالى ويتوبُ، وبين من يُذنبُ فيعتاد الذَّنب ويتلذَّذ به، بل ويشتاقُ إلى الخلوة لمحبَّته للذَّنب، وهذا من نقص التَّوحيد -ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم-.

تعزيز المراقبة والإحسان

١- عبادات السرِّ: ولا يُعرَفُ لعلاج ذنوبِ الخلوات أعظم من طاعات الخلوات، فكما أنَّ ذنوب الخلوات مهلكاتٌ فإنَّ طاعات السرِّ منجياتٌ.

فاحرص أيها المسلم على عبادات الخفاء ولا سيما قيام اللَّيل، فقد قال الله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذَّاريات: ١٧-١٨]، فالموفَّق من كان من أصحاب قيام اللَّيل، فالله سبحانه وتعالى قال قبل الآيتين السَّابقتين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذَّاريات: ١٦]، فكن مُستَعينًا بالله ﷻ من المحسنين، واجعل لك عملًا من أعمالِ الخفاء كالصَّلاةِ والصِّيامِ والذِّكر، واستحضِر التَّلذُّذ باستشعار مراقبة الله أثناءه.

٢- الاتِّعاظ بقصص الأنبياء والسَّلف الصَّالح: إنَّ في قصة نبيِّ الله يوسف -عليه السَّلام- خيرُ عبرةٍ فقد ناداه صاحباه في السِّجن بأحسن الألفاظ التي قد يحظى بها إنسانٌ على وجه الأرض، قال تعالى على لسانهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، ذلك أنَّه حين ناداه داعي الشَّهوة أبى وأحسنَ، وكذلك أحسن في البئر وأحسن في السِّجن، وإنَّ في قصص السَّلف التي بلغتنا في هذا الزَّمان الكثير ممَّا يدلُّ على حسنِ مراقبة العبد أو الأمَة ربَّهما في السرِّ والعلن؛ ويا حبَّذا لو كانوا هم القدوة اليومَ؛ لكان حالُ المسلمين أفضل -والله المستعان-، وقد ذكر ابن القيم وغيرُه هذه الحكاية: وهي أنَّه بينما عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنه- وهو أمير المؤمنين، يعسُّ ذات ليلةٍ سمع امرأةً تقول:

تطاول هـذا اللَّيل واخضـلَّ جانبه
وآرقـنـي أن لا خليـل ألاعـبه
فـوالله لـولا الله لا شيء غيـره
لـحرَّك من هـذا السَّـرير جوانبه
مـخافـة ربي والحـياء يكـفُّني
وأكـرم بعلي أن تنال مـراكبه

فقال: «**لولا أنَّها افتتحت الكلام بالخوف وختمته بالخوف لأوجعتها ضربًا**»، ثم دق عليها الباب، فقالت: «**من يدقُّ امرأةً مغيَّبةً؟**»، فقال: «**افتحي**»، فقالت: «**أما والله لو علم بك أمير المؤمنين لأوجعك ضربًا**»، فقال: «**افتحي، أنا أمير المؤمنين**»، قالت: «**كذبت**»، فرفع لها صوته، فلمَّا عرفته فتحت له فقال: «**لمن تذكرين؟**»، قالت: «**زوجي وجَّهه أمير المؤمنين في غزاة كذا وكذا**»، فذهب فدخل على حفصة فقال: «**أي بنيَّة كم صبر المرأة عن زوجها؟**»، قالت: «**تصبر الشَّهر، والشَّهرين والثَّلاثة في أربعةٍ ينفذ الصَّبر**».

وكثيرة هي أخبار من بلغوا منزلة الإحسان بمراقبة الرحمن جل في علاه، والأمة اليوم أحوج ما تكون إلى المحسنين والمحسنات؛ فمن أحسن أحسن الله إليه ومن أساء فلا يلومنَّ إلا نفسه.